الباب الثاني

لا تحزن وارض بما قسم الله لك

يجب عليك أن ترضى بما رضيه لك الخالق جَلَّ وَعَلَا:

لابد أن تعلم أيها الأخ الحبيب أن الله لا يختار لعبده إلا أفضل الأشياء، وأن الله هو الذي يعلم ما يُصلح العبد وما يُفسده.. أما العبد فنظرته قاصرة؛ لأنه لا يعلم عواقب الأمور.

فإذا علمت هذا فما عليك إلا أن ترضى بما رضيه لك الخالق جَلَّ وَعَلَا وأن تحمده في كل الأحوال فهو أرحم بك من الأم بطفلها الرضيع.

أن تعلم أن الله لا يبتليك ليعذبك وإنما ليطهرك ويقربك:

ومما يتسلى به المصاب: أن يوطن نفسه على أن كل مصيبة تأتيه هي من عند الله، وأنها بقضائه وقدره، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يقدرها عليه ليهلكه بها ولا ليعذبه، وإنما ابتلاء ليمتحن صبره ورضاه.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.
[النِّسَاء: ١٤٧]

أن تعلم أن المصيبة ثابتة.. فلا تعترض على أمر الله:

فالعاقل هو الذي يعلم أن المصيبة إذا وقعت فلا فائدة من الاعتراض على أمر الله جَلَّ وَعَلَا.. فعليه حينئذٍ أن يرضى ويسلم ليفوز بالأجر والثواب بدلًا من أن يتسخط على أمر الله فيبوء بالذنب والبلاء في آن واحد.

لا تحزن

لا تحزن: إن كنت فقيرًا فغيرُك محبوس في دَين، وإن كنتَ لا تملك وسيلة نقل، فسواك مبتور القدمين، وإن كنت تشكو من آلام فالآخرون يرقدون على الأسِرَّة البيضاء ومنذ سنوات، وإن فقدتَ ولدًا فسواك فقد عددًا من الأولاد في حادث واحد.

لا تحزن من الشدائد: فإن الشدائد تقوِّي القلب، وتمحو الذنب، وتقصم العُجب، وتنسف الكِبر، وهي ذوبان للغفلة، وإشعال للتذكُّر، وجلبٌ عطف المخلوقين، ودعاءٌ من الصالحين، وخضوع للجبروت، واستسلام للواحد القهار، وزجرٌ حاضر، ونذير مقدم، وإحياء للذكر، وتضرُّع بالصبر، واحتساب للغصص، وتهيئة للقدوم على المولى، وإزعاج عن الركون إلى الدنيا والرضا بها والاطمئنان إليها، وما خفي من اللطف أعظم، وما سُتِرَ من الذنب أكبر، وما عُفي من الخطأ أجلُّ.

لا تحزن واختر لنفسك ما اختاره الله لك

قم إن أقامَك، واقعد إن أقعدَك، واصبر إذا أفقرك، واشكر إذا أغناك، فهذه من لوازم: «رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًّا».

لا تحزن فأنت مؤمن بالله

﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

إن الإيمان هو سر الرضا والهدوء والأمن وإن الحيرة والشقاء مع الشك والإلحاد، ومن النعيم الذي لا يدركه إلَّا الفطناء: نظر المسلم إلى الكافر، وتذكُّر نعمة الله في الهداية إلى دين الإسلام، وأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يقدِّر لك أن تكون كهذا الكافر في كفره بربه وتمرُّده عليه، وإلحاده في آياته، وجحود صفاته، ومحاربته لمولاه وخالقه ورازقه، وتكذيبه لرسله وكتبه، وعصيانه أوامره، ثم تذكَّر أنت أنك مسلم موحِّد، تؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وتؤدِّي الفرائض ولو على تقصير؛ فإن هذا في حدِّ ذاته نعمة لا تُقدَّر بثمن ولا

تُباع بمال، ولا تدور في الحسبان، وليس لها شبيه في الأعيان: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة: ١٨].

حتى ذكر بعض المفسرين أن من نعيم أهل الجنة نظرهم إلى أهل النار فيشكرون ربهم على هذا النعيم: «وبضدِّها تتميز الأشياء».

لا تحزن: لأنك تُقلق أعصابَك، وتهزُّ كيانك وتُتعبُ قلبك، وتُقضّ مضجعك، وتسهر ليلك.

قال الشاعر:

وَلَرُبَّ نازلةٍ يَضيقُ بها الفتى ذَرْعًا وعندَ اللهِ منها المخرَجُ
ضاقتْ فلمّا استحكمتْ حلقاتُها فُرِجَتْ وكان يظنُّها لا تُفرجُ[1]

الرضا بما حصل يُذهب الحزن

وفي الحديث: «ولا نقول إلا ما يُرضي ربَّنا».

إن عليك واجبًا مقدَّسًا، وهو الانقياد والتسليم إذا داهمك المقدور، لتكون النتيجة في صالحك، والعافية لك؛ لأنك بهذا تنجو من كارثة الإحباط العاجل والإفلاس الآجل.

لا تحزن: لأن القضاء مفروغٌ منه، والمقدور واقع، والأقلام جفَّت، والصحف طُويتْ، وكلُّ أمرٍ مستقر، فحزنك لا يقدِّم في الواقع شيئًا ولا يؤخِّر، ولا يزيد ولا يُنقِص.

لا تحزن: لأنك بحزنك تريد إيقاف الزمن، وحبسَ الشمس، وإعادة عقارب الساعة، والمشيَ إلى الخلف، وردَّ النهر إلى منبعه.

---

(١) «لا تحزن».

«إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط».

«أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلَى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّة ابتُلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد، حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة» رواه البخاري.

«عجبًا لأمر المؤمن إنَّ أمره كلَّه له خير!! وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له» رواه مسلم.

«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» رواه أحمد والترمذي.

«يُبتلَى الصالحون الأمثل فالأمثل».

«المؤمن كالخامة من الزرع تُفيِّئها الريح يمنةً ويسرةً».

وفي الحديث الصحيح: «من قبضتُ صفيَّهُ من أهل الدنيا ثم احتسبه عوضتُهُ منه الجنة». [رواه البخاري].

وكانتْ في حياتِكَ لي عظاتٌ ... فأنتَ اليومَ أوعظُ منكَ حيّا

وفي الحديث الصحيح: «مَن ابتليتُه بحبيبتيه (أي عينيه) عوضتُه منهما الجنة»، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وفي حديث صحيح: «إن الله عَزَّوَجَلَّ إذا قبض ابن العبد المؤمن، قال للملائكة: قبضتم ابن عبدي المؤمن؟ قالوا: نعم، قال: قبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا: نعم، قال: ماذا قال عبدي؟ قالوا: حمدك واسترجع. قال: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد».

[رواه الترمذي]

وفي الأثر: يتمنى أناس يوم القيامة أنهم قُرضوا بالمقارض، لِمَا يرون من حسن عُقبى وثواب المصابين، ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]، ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد: ٢٤]، ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ [البقرة: ٢٥٠]، ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧]، ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ [الروم: ٦٠].

وفي الحديث: «**إن عِظَم الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**». [رواه الترمذي].

إن في المصائب مسائل: الصبر والقدر والأجر، وليعلم العبد أن الذي أخذ هو الذي أعطى، وأن الذي سلب هو الذي منح، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾. [النساء: ٥٨]

وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعُ ولابدّ يومًا أن تُردّ الودائعُ

عليك أن تقنع بما قُسم لك من جسم ومال وولد وسكن وموهبة، وهذا منطق القرءان: ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، إن غالب علماء السلف وأكثر الجيل الأول كانوا فقراء لم يكن لديهم أُعطيات ولا مساكن بهية، ولا مراكب، ولا حشم، ومع ذلك أثْروا الحياة وأسعدوا أنفسهم والإنسانية؛ لأنهم وجّهوا ما آتاهم الله من خير في سبيله الصحيح، فبورك لهم في أعمارهم وأوقاتهم ومواهبهم، ويقابل هذا الصنف المبارك مَلأٌ أُعطوا من الأموال والأولاد والنعم، فكانت سبب شقائهم وتعاستهم؛ لأنهم انحرفوا عن الفطرة السويّة والمنهج الحق وهذا برهان ساطع على أن الأشياء ليست كل شيء، انظر إلى من حمل شهادات عالميّة لكنه نكرة من النكرات في عطائه وفهمه وأثره، بينما آخرون عندهم علم محدود، وقد جعلوا منه نهرًا دافقًا بالنفع والإصلاح والعمار.

إن كنت تريد السعادة فارضَ بصورتك التي ركبك الله فيها، وارض بوضعك الأسري، وصوتك، ومستوى فهمك، ودخلك، بل إن بعض المربِّين الزهاد يذهبون إلى أبعد من ذلك فيقولون لك: ارض بأقل مما أنت فيه ويدون ما أنت عليه.

هاك قائمة رائعة مليئة باللامعين الذين بخسوا حظوظهم الدنيوية:

عطاء بن رباح: عالم الدنيا في عهده، مولى أسود أفطس أشل مفلفل الشعر.

الأحنف بن قيس: حليم العرب قاطبة، نحيف الجسم، أحدب الظهر، أحنى الساقين، ضعيف البنية.

الأعمش: محدِّث الدنيا، من الموالي، ضعيف البصر، فقير ذات اليد، ممزق الثياب، رث الهيئة والمنزل.

بل الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، كل منهم رعى الغنم، وكان داود حَدَّادًا، وزكريا نجارًا، وإدريس خياطًا، وهم صفوة الناس وخير البشر.

إذًا فقيمتك مواهبك، وعملك الصالح، ونفعك، وخلقك، فلا تأس على ما فات من جمال أو مال أو عيال، وارض بقسمة الله ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾. [الزخرف: ٣٢]

لا تحزن، فرزقك مضمون ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، لتعلم البشريَّةُ أن رازق الوالد والولد، هو الذي لم يلد ولم يولد.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء: ٣١]، إن صاحب الخزائن الكبرى -جلَّ في علاه- قد تكفَّل بالرزق، فلِمَ القلق والزعيم بذلك الله؟!

﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩].

سبحان الخالق الرازق، أعطى الدودة رزقها في الطِّين، والسمكةَ في الماء، والطائرَ في الهواء، والنملةَ في الظَّلماء، والحيَّة بين الصخور الصماء.

ذَكَر ابن الجوزي لطيفةً من اللَّطائف: أن حيَّة عمياء كانت في رأس نخلة، فكان يأتيها عصفورٌ بلحمٍ في فمه، فإذا اقترب منها وَرْوَرَ وصفَّر، فتفتح فاها، فيضع اللحم فيه. سبحان من سخَّر هذه لهذه، ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

وإذ ترى الثعبانَ ينفُثُ سُمَّهُ ... فاسألْهُ مَنْ ذا بالسُّموم حشاكا
واسألْهُ كيف تَعيشُ يا ثعبانُ أَوْ ... تحيا وهذا السُّمُّ يَمْلأُ فاكا

كانت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ يأتيها رزقُها في المحراب صباحَ مساء، فقيل لها: يا مريم، أنَّى لكِ هذا؟ قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب[(١)].

وقال بعضهم: «ارض عن الله في جميع ما يفعله بك؛ فإنه ما منعك إلا ليعطيك، ولا ابتلاك إلا ليعافيك، ولا أمرضك إلا ليشفيك، ولا أماتك إلا ليحييك، فإياك أن تفارق الرضى عنه طرفة عين، فتسقط من عينه».

ومن رحمته سبحانه بعباده أن نغَّص عليهم الدنيا، وكدَّرها؛ لئلا يسكنوا إليها ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم.

قال وهب بن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن من قبلكم كان إذا أصاب أحدهم بلاء عدَّه رخاء، وإذا أصابه رخاء عدَّه بلاء».

---

(١) «لا تحزن».

قال بعض الحكماء: «ربَّ محسود على رخاء هو شقاؤه، ومرحوم من سقم هو شفاؤه، ومغبوط بنعمة هي بلاؤه».

وقال بعض السلف: «يا ابن آدم، نعمة الله عليك فيما تكره أعظم من نعمته عليك فيما تحب».

قال أحدهم:

لا تُدبِّرْ لك أمرًا فأُولوا التدبيرِ هَلْكَى
وارضَ عنّا إن حَكَمْنا نحنُ أولى بِك مِنكا

obeikandl.com